الخطاب الشعري حول شخصية الزعيم ياسر عرفات والتجسيد الفني لظاهرة الموت

د. حماد حسن أبو شاويش*

الملخص

تعد لحظة الموت من أكثر اللحظات المؤثرة في تاريخ الإنسان ووجوده، وقد أثار استشهاد الزعيم ياسر عرفات الشعراء، فاحتلت صورة موته جانباً مهماً من شعرهم، ويتلمس هذا البحث ملامح هذه الصورة وأنواعها، موضحاً التداخل الواضح بين الموت والحزن والموت والبطولة والموت والأرض والوطن، كاشفاً عن أبعاد هذه الظاهرة ودلالاتها.

ABSTRACT

The moment of death is considered one of the most effective moments in man's history and existence. The death – martyrdom – of the leader Yasser Arafat instigated poets since his death occupied an important area of their poetry. This study is an attempt to scrutinize and probe for characteristics of the image of the leader's death. It explains a clear overlapping between death and melancholy, death and gallantry and death and land and home. The present study also brings into view the artistic dimensions of death phenomenon.

المقدمة:

الموت هو الحقيقة الكبرى أو قل هو حقيقة الحقائق التي انتهى إليها الإنسان بعد رحلته المضنية في التساؤل عن معنى الحياة والموت.

ورغم أن الموت لغز حيّر العقول وشغلها في التفكير منذ زمن طويل فإن الإنسان أدرك أنه فان لا محالة. مصداقاً لقوله تعالى: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" (الرحمن: 26، 27) ولقوله تعالى "كل نفس ذائقة الموت" (آل عمران: 185).

والإشكال يتمثل في أن الإنسان لا يعلم متى ولا أين يقع الموت، وقد عبر عدد من الفلاسفة والمفكرين عن هذا الإشكال، فقال باسكال: "إن كلّ ما أعلمه هو أنه قد قضي عليّ بالموت، ولكن ما أجهله أشد الجهل إنما هو هذا الموت نفسه باعتباره شيئاً لا سبيل إلى الخلاص منه" (إبراهيم: د.ت، 115) والإشكال الآخر يكمن في الموت ذاته (شرفة: 1987، 203)، إذ لا سبيل إلى إدراك الموت إدراكاً مباشراً. يقول د. عبد الرحمن بدوي: "لا سبيل لإدراك الموت مباشرة، بوصفه موتي أنا الخاص، لأنني في هذه الحالة لا أستطيع الإدراك، ومعنى هذا أيضاً أنني لا أستطيع أن أدرك الموت إدراكاً حقيقياً، لأن إدراكي الموت سينحصر في حضوري موت الآخرين، ومشاهدة الآثار الخارجية التي يحدثها الموت، ومثل هذا الإدراك ليس إدراكاً حقيقياً للموت، كما هو في ذاته، بل هو إدراك الموت في آثاره" (بدوي: د.ت، 6).

---

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة الأقصى – غزة – فلسطين .

وهناك أحياناً تناقض في النظر إلى الموت، فمن الفلاسفة من وصفه بأنه شر، ونظر إليه على أنه ضد الحياة، ومنهم من وصفه بأنه خير، ولكنه خير سلبي من شأنه أن يمحو ما في الوجود من شقاء وعذاب (بدوي: د.ت، 17-35).

ولقد كان للشعراء القدامى أو المحدثين موقف من الموت وكان هذا الموقف في القليل ناتج عن تأمل عقلي (ومن النماذج التي تضرب على هذا الموقف الناتج عن تأمل عقلي قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء الفقيه أبي حمزة وبعض شعره في اللزوميات) ولكنه كان في الغالب صادراً عن تأثر مباشر بفقد أحد الأقارب أو أحد القادة أو الزعماء المخلصين، وفي تاريخنا المعاصر يعد ياسر عرفات من القادة الذين لهم مكانتهم في النضال، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن حياته (راجع الملحق عن سيرة الزعيم ياسر عرفات) لم تكن حياة شخص معين عاش في زمان ومكان معينين بمقدار ما كانت جزءاً حياً نابضاً من مسار تاريخنا الوطني والقومي في مرحلة مهمة من أخطر مراحله، إنه واحد من أولئك الذين شاء لهم قدرهم أن يكونوا تجسيداً لوجدان شعبهم وطموحات أمتهم ونزوعهما الدائم إلى تجاوز الهزيمة والانكسار، إنه واحد من الذين عاشوا لكي يردوا عن مجتمعاتهم غائلة التراجع والتنازل والاستسلام والموت الروحي الذي هو نقيض الخصب والنمو والتجدد، لذلك كان استشهاده حدثاً تجاوز حدوده الوطنية إلى حدوده القومية.

كان لفقد الزعيم ياسر عرفات في مرحلة حرجة من تاريخنا الوطني أثره على عدد من الشعراء الذين برز لهم موقف واضح من استشهاده يدفعهم إلى ذلك الوفاء والإخلاص لمن أفنى عمره من أجل قضية وطنه وشعبه، وأمته كما يدفعهم مشاعر الحزن والألم، أو مشاعر الاعتزاز والافتخار، وفي كل الأحوال جاء الشعر معبراً تعبيراً فنياً (جمالياً) عن موقف يستحق الالتفات كما يستحق البحث والدراسة.

صور الموت (الاستشهاد):

لو رجعنا نتتبع انعكاس فقد الزعيم ياسر عرفات على الأشعار لوجدنا أنها لا تكاد تتجاوز صورتين لموته (استشهاده)، الصورة الأولى هي الصورة المشرقة تجاه ذلك الموت، والصورة الثانية هي الصورة القاتمة الحزينة تجاه ذلك الحدث الجلل.

أولاً: الصورة المشرقة (الموت الجميل)

أصبحت قضية الموت لدى عدد من الشعراء قضية الحياة، لأن من الموت تولد الحياة (النابلسي: 1987، 405)، والحق أن اقتران الموت بالحياة فكرة خلاقة ترددت في الشعر العربي في فلسطين وفي غيرها، وبخاصة عندما يرتبط الموت بالنضال من أجل حرية الإنسان وكرامته، والحرية مطلب بل "ضرورة إنسانية يؤدي غيابها إلى فجوة.. واختلال في حركة الحياة وتوازنها

(درويش: 1992، 88)، كما أن الحياة دون حرية لا معنى لها، ويصبح الموت موتاً جليلاً ومألوفاً عندما يكون في سبيل تلك الحرية المفقودة والوطن الضائع والأرض التي تشكل مكاناً ينسلخ عنها الزمان.

كما يصبح الموت قدراً مطلوباً، عندما تتولد منه قوة الحياة، فالعربي الفلسطيني لا يملك غير روحه يفدي بها أرضه ووطنه وشعبه، عندئذ يصبح الموت تاريخاً وأغنية وذاكرة تلم الجراح وتشعله:

نموت كما يموت الناس أحياناً وننتقل ...
وأحياناً يكون الموت تاريخاً وأسفاراً معلقة
على جدراننا تبقى تذكرنا
بما أعطت قوافلنا
لها عشقاً يضيءُ الموت مسرحنا
تكاد بروحها بين اليدين معالم تصل
ومن جيل إلى جيل يشع بنورها الأمل
جبال هدها موت
وموت هده الرجل
كأن الموت أغنية، وذاكرة، ورافعة
تلم جراحنا وطناً وتشتعل (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 2005: 153).

من الواضح أن الشاعر اتخذ من رثاء الشهيد عرفات محاولة للتعامل مع الموت لتحويله إلى قوة حركية فعالة ودافعة نحو الوطن، وتوليد قوة من قوة الموت نفسها، لقد وضع الموت – ومن خلال رؤية خاصة ومشاعر صادقة – في إطار غير إطاره المألوف، فلم يعد يعني الفقد والزوال وإنما تخطى ذلك إلى دلالات بعيدة.

ألح الشاعر على استخدام الفعل المضارع " نموت، يموت، ننتقل، يكون، تبقى، تتذكرنا، يضيء، تصل، يشع، تلم، تشتعل" ليجعل من فعل الموت وما يرتبط به من آثار أمراً متجدداً نامياً مطرداً، مستخدماً صيغة الجمع: "نموت، ننتقل، تذكرنا، قوافلنا، جراحنا، جدراننا، مسرحنا"، للتدليل على أن الاستشهاد قدر الشعب الفلسطيني، الذي يواجه الموت بروح جماعية، حتى إن القائد – وهو من الشعب لا يحيد عن هذا المصير، ولكن يواجهه بطريقته هو، فالقائد لا يموت موتاً عادياً بل يستشهد، وقد وصفه الشاعر بأنه الرجل مستخدماً التعريف للتأكيد على شهرة الزعيم القائد ياسر عرفات وعدم الحاجة إلى تحديده باسم أو لقب، فكأنه أشهر من أن يسمي أو يوصف، وقد جعله الشاعر يواجه الموت بتحدٍ وصل حد القهر والانتصار على الموت، لأنه لم يكن هياباً من فعله

وبطشه، فهو كالفرسان، الموت عندهم خصم وند، إنهم لا يخافون الموت بقدر ما يتأهبون للقائه. يقول الشاعر أحمد دحبور في قصيدة "وداع الرجل الكبير":

قيل: استراح محارب
لكن مثلك يستريح على السحابة
حين ينعقد الغبار
وتنشأ الأخطار في مرمى سهامك
لم يدعني صوت المعزّي
بل أتيت لأنحني في حضرة الأيام
وهي تصير تاريخ الفلسطيني
والتاريخ تصنعه فيعبر، رافعاً كبر التحية من أمامك (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 2005، 107).

لقد كان القائد عرفات محارباً في جبهة قتال واسعة ومتعبة وشاقة، وقد يفهم أن استشهاده استراحة له من عناء الحرب والقتال، والحقيقة أن الموت/ الاستشهاد لم يكن راحة له، كما يعتقد البعض، لأنه كان مناضلاً وقائداً لا يستريح إلا في المخاطر والصعاب والمعارك بكل صورها وأشكالها، فهو يدرك أنها هي التي توصله إلى هدفه، وهو يعرف هدفه حق المعرفة، إنه بنضاله وتضحياته صانع للتاريخ؛ لأنه يدافع عن أقدس قضية ويجاهد في سبيلها أنبل جهاد، فأثبت لنفسه وفي سجل الخالدين الشموخ والعزة والخلود، وهذا لا يسجل إلا للقلائل من الرجال في التاريخ.

إن الموت عندما يكون من أجل أهداف إنسانية سامية، من أجل الخلاص الإنساني من القهر والبطش وظلم الاحتلال يكون عبوراً إلى الحياة الحرة الكريمة إلى الخلود الأبدي المنتظر، وبذلك يكون الشعلة، التي تضيء الدرب وتنير بأشعتها دياجير الظلم (قميحة: 1981، 391).

ومن هذا المنطلق كان عشق الزعيم ياسر عرفات لوطنه وحرية شعبه، ذلك العشق الذي جعله يعشق الموت، ويسعى إليه قبل أن يسعى الموت إليه، وهذا الموقف ينبع من إيمانه الذي لا يتزعزع بأن شعبه سوف يقطف ثمار عمله وتضحياته:

رفعت يديك للرحمن مرات لتطلبها
شهيداً مثلما ترجو وتبتهل
وكنت تلح دوماً في السؤال هنا وتعتقد
أجابك بالقبول الواحد الأحد (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 2005، 154).

ويتحقق الموت الأليف من خلال التوافق الوجداني الأكثر شجاعة مع الموت، فالمصرع أو الموت الكريم جزء من رغبات الإنسان وطموحاته العزيزة، إنه كسب يشرف به ومأثرة ترفع

من شأنه وتسهم في تخليده، وما كان ذلك إلا لأن هذا الموت الشريف ولـه ومعتقـد فـي الفكـر والوجدان لدى الزعيم وشعبه:

ـ تركت لنا على أبوابنا التاريخ يحتشد

وشهادة الشهداء فوق الأرض تملؤها وتمتد

كعاصفة وتشتد ...

وإن الموت في محرابنا وله ومعتقد (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 205، 165).

إنه التوق إلى الاستشهاد والتضحية بالنفس من أجل الوطن صورة من صور الخروج إلى الشطآن الضوئية التي هي مسئولية الإنسان الذي يدرك أن الموت ليس نهاية الحياة، بل هو بدايـة لها، خلود أبدي فيها، ولو كان الموت هو النهاية، هو الوقوف، هو الخاتمة التي ليس مـن بعـدها هدف، لما كان هناك أي معنى للإقدام، للفداء، للتضحية، للعطاء الذي يبذل النفس رخيـصة فـي سبيل استمرار الحياة، في سبيل أن تظل تلك الشعلة مضاءة وهاجة تشع بنورها المقدس إلـى أبـد الآبدين" (قميحة: 1981، 394).

إن السعادة والحياة الجميلة تكمن فيما صار إليه الشهيد القائد إنه رغم الافتراق لـم يكـن بعيداً عنا، بل إنه يرمقنا بفرحة ونشوة، فرحة الذي استراح في جنان الخلد بعد طول عناء وشـدة وابتلاء:

أعند الباب نفترق؟

فأقدار تجمعنا

وأقدار تفرقنا

ويبقى العهد والقسم

أراك اليوم منتشياً وتفرح مثل أشبالك

وتضحك ملء أشداقك

وحطت عنك أحمالك (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 168، 169).

يحيط الشاعر موت الزعيم بهالة من البشر والفرحة، وكأننا لسنا بصدد مأتم، إنما نحن في موقف بهيج، فالموت هنا ليس مارداً قاسياً كما عهدناه – إنما هو عامل من العوامل التي لا تبعـث على الاكتئاب والحزن والألم، لقد اتجه الشاعر إلى تكرار لفظة (أقدار) ليؤكد حقيقة الموت وأنه لا مفر منه ولكن هذا الموت لم يكن مرعباً مخيفاً، بل بدا معه القائد الشهيد وكأنه في مشهد مـشرق وهي صورة للموت تناقض الصورة المألوفة عنه.

ويسمو الشاعر بالشهيد القائد ليجعله طائراً يحلق في سماء الخلد وقد اكتسب سمة الخلود من استشهاده الذي كان استشهاداً في قلب الفعل الإنساني، قلب النضال والعمل الثوري الـذي لـم

يتوقف حتى آخر لحظة في حياته، فكانت ثمرته أعلى الدرجات، فهو في الجنة وفي رحمة الله على مر الزمان:

يا طائر الفينيق حلق في سماء الخلد
في عبق الجنان
في رحمة الله
يا سيد الشهداء في مر الزمان (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 41).

وقد استدعى الشاعر رمز (الفينيق) ليعبر عن المكابدة التي عاشها الشهيد في حياته كقائد يمثل الطليعة لأبناء شعبه، تلك الطليعة التي عايشت ما عايشه شعبها من قسوة الاحتلال وبطشه، فما الذي يمكن عمله إزاء ذلك الواقع سوى أن يواجه القائد قدر بلاده التي أضحت مطمع الغزاة وضحية العدوان، ورمز الفينيق ذو دلالة عميقة على التجدد والانطلاق من وسط المعاناة والاحتراق.

إن شرف الشهادة في سبيل الله والوطن والحق خلق إسلامي سامٍ ونبيل وفكرة خلاقة وقيمة عظيمة من قيمنا التي ترسخت في وعينا وفي تراثنا العربي والإسلامي تستحق درجة وعدها الله سبحانه وتعالى للشهداء، فهم في عليين مع الأنبياء والصديقين، مصداقاً لقوله تعالى "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون" (آل عمران، 169) إنهم خالدون في جنات عدن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر. وقد استلهم الشاعر – في تقديم صورة مشرقة للاستشهاد – هذا البعد الروحي وترسمه في ذلك المشهد الذي لم يكتفِ فيه بمنح صفة الحياة للشهيد وإنما أضفى عليه أيضاً صفة التحليق الحر الطليق السعيد في عالم الخلود، عالم الرحمة، رحمة الله التي وسعت كل شيء.

لقد أصبحت قضية الموت لدى عدد من الشعراء قضية الحياة، لأن من موت الشهداء تولد الحياة، الحياة الأخرى المتجددة، فالموت الذي يكون نتيجة مجابهة أو مقاومة أو تحدٍ للعدوان يعد موتاً يتعايش مع الحياة، فهو يعني التجدد والطريق إلى الانبعاث من جديد. لقد كان موت عرفات بعثاً لمعاني الصمود والبطولة، إنه حياة جديدة لا تعرف العدم، لذلك سيظل باقياً في القلوب وفي الوجدان في الأرض المباركة أرض التين والزيتون:

ها أنت باق بيننا
ها أنت فينا سيدي طول السنين
ها أنت فينا
في القلوب وفي الحنين
في التين والزيتون باق

في حليب الأمهات (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 40).

إن من ملامح خلود ذكرى القائد الشهيد أنه لم يمت؛ أي لم تنته ذكراه، ولن يغيب عن الحضور؛ لأنه تخلد من خلال استشهاده وموته المشرف دفاعاً عن قضيته العادلة وعن حق شعبه في الحياة:

لم تكن يوماً قتيلاً
بل شهيداً
روحه ما فارقت وطناً
ولا اختارت بديلاً
. . . . . .
ما زلت حياً رغم موتك
لم تكن يوماً قتيلاً
ما زلت حياً رغم جرحك
رغم نعيك، يا وحيد الحزن
موتك بيننا أضحى صهيلاً
لم تكن إلا رسولاً (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 76).

تتجلى مظاهر القوة الحياتية المتولدة من قوة فعل الموت من تأكيد الشاعر على أن القائد باق ما بقيت فلسطين وطنه وأرضه، كما تتجلى من الدعوة إلى استمرارية الحياة بعد استشهاده باعتبار أن هذا الاستشهاد هو خطوة وبداية، وذلك يعني أن الحياة لن تتوقف بل إنها ستندفع إلى الأمام (النابلسيي: 1987، 413).

لقد اتكأ الشاعر على ازدواجية الغياب والحضور، فقد كان غياب البطل وسيلة صعوده إلى آفاق واسعة وحضوره في الوجدان وفي العقول، وهذا الحضور يكاد يلغي هذا الغياب، وقد احتاج ذلك إلى أن تستدعي الشعرية أسلوب نفي الموت العادي (لم تكن يوماً قتيلاً)، واستخدام التكرار لهذا الأسلوب لتأكيد أن موت البطل كان استشهاداً وسمواً في الموت الذي يعني الخلود والبقاء، وهو يعطي نتيجة تناقض نتيجة الموت العادي (القتيل)، كما استدعت الشعرية استخدام الأسلوب الدال على الاستمرارية (مازال) لتأكيد الحياة وتجددها لهذا الشهيد، وكأن الشاعر يريد أن يستحضر زمن الشهيد في الماضي والمستقبل وقد تنامي هذا الاستحضار حتى ولج بشخصية القائد دائرة القداسة (لم تكن إلا رسولاً) وأعطاها ملامح المخلص من الظلم والقهر والعدوان، وقدم ذلك من خلال تلك المفارقة الحادة بين الحياة والموت بين الغياب والحضور.

ثانياً: الصورة القاتمة:

لقد عنى عدد من الشعراء بتصوير أثر الفاجعة التي أحاطت بفقد القائد ياسر عرفات، وكشف بعضهم عن الحزن العميق لهذا الفقد، ومن ذلك قول الشاعر:

أنبكي الآن أم إن البكاء مؤجل فينا
رحلت كأنك الآتي غداً تفد
فكيف يعود محمولاً على أكتافنا الجسد.
كأن النار في الأحشاء تتقد
وإن الدمع في حدقاتنا جمر
كأنك تحفر الذكرى لنا عشقاً
وإن العشق في أحلامنا مدد (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 164).

وفي هذه الأسطر يتراكم كم وافر من المفردات الدالة على حقل (الحزن والألم) مثل: "تبكي، بكاء، رحلت، محمولاً، الجسد، النار،الأحشاء، تتقد، الدمع، حدقاتنا، جمر، الذكرى، تحفر".

ولا شك أن إيغال الشعرية في وصف هذه الحالة المأساوية الدرامية المثيرة للأسى والحزن كان موازياً لإغراق الواقع الفلسطيني الحزين فيها، ومن ثم حصرت الشعرية اختياراتها في هذه المنطقة المظلمة، ولم تسمح بأية إضاءة أن تتسلل إليها سوى الأحلام وسوى العشق الذي سيعيش على الذكرى، ومن المفردات التي تحمل دلالات عميقة تجعل منها مفاتيح للنص مفرده (الجسد)، والجسد في وجداننا الشعبي وفي ثقافتنا العربية وكما ورد في النص يحمل ملامح القائد، فهو موطن السر وعليه تتوقف سمات الشخصية للإنسان، وهو رغم افتقاده الروح – في حالة استشهاد القائد – كائن مكتمل ينبض بالوجود ولذلك يمثل أعلى مراتب الإجلال والتكريم وهو وإن حمل على الأكتاف يسكن القلب من الشعب، ويجسد حلم الأمة في البقاء والانتصار.

ويكشف الشاعر عبد الحكيم أبو جاموس عن أثر غياب الرئيس على أبناء شعبه الذين تحولوا بعد فقده إلى أيتام غرقوا في لجة الحياة العاتية وفي خضم الواقع المرير، فالعيون أثخنت بالدموع والدماء، والقلوب تقطعت وافتقد الشعب الأمل والرجاء، وبهذا يؤكد الشاعر على المكانة العالية والمنزلة الجليلة لهذا الزعيم، فقد كان لشعبه المنقذ والمخلص والأمل في النجاة:

قد هزنا الريح ويحي أيها الجبل
وأثخنت بالدماء والأدمع المقل
لما قضيت غدونا يتماً غرقوا
في لجة البحر لا حظ ولا أمل
فأي عيد بلا كوفية شمخت

على الزمان وهابت ظلها الدول؟
تقطعت من نياط القلب أوردة
يوم الرحيل وغاب الفارس البطل (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 2).

ومن الواضح أن الشاعر نظر إلى الفقيد كرجل عظيم، لذلك كان الحزن على فقده كبيراً، خاصة وأنه يمثل رمزاً وطنياً، ويبرز ذلك من قول الشاعر: "فأي عيد بلا كوفية شمخت" فالكوفية رمز اللباس الشعبي الفلسطيني، رمز الهوية الفلسطينية عبر التاريخ، وهذا يؤكد أن رثاء الفقيد أخذ بعداً وطنياً وتجاوز البعد الشخصي، وقد استخدم الشاعر ضمير (نا) الدال على الجماعة ليحمل الدلالة على البعد الجماعي للتعبير عن شدة المصاب وقسوة وقعة على النفوس.

ولا تخلو الصياغة الشعرية من براعة في بعض المواضع وإن غلب عليها الوضوح والتعبير المباشر الذي يفتقر إلى السمو في الرؤية، فلا نعثر على تأمل عميق لظاهرة الموت يكشف عن فلسفة تجاه هذه الظاهرة التي واجهت الإنسان وستواجهه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذا الشاعر عمر شلايل يمنح تجربته الرثائية بعداً تجاوز بها دائرة الرثاء التقليدي الذي يقتصر على وصف الإحساس الخاص بفقد المرثي، ففي قصيدة "الرمز الخالد" يقول:

يغافلنا الرحيل بسره يمضي وينغلق
كأن السر يختنق
أتمضي تسبق الزمن الذي يبقى لأشبالك
بلا ماء لمشوارك
ولا عشب على أطراف أسوارك
كأنك قد قرأت لنا نبوءات بفنجانك
فتمضي في سباق العمر ترسمه لأجيالك
وتخشى كيد أعدائك
كأنك في متاهات العروبة كلها جمل
تصوم الدهر أحشاؤك
وماؤك كله غور
ولم تتعبك في الأنواء أحمالك
بلا نار ستخبز قوت أعوامك
وتدفئ برد أيامك (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 159).

يشير الشاعر إلى الموت بأكثر من لفظ فهو يستخدم للدلالة عليه "الرحيل"، كما يستخدم "تمضي"، وقد تضمنت الأسطر الشعرية تصويراً للموت القاسي، وهي قسوة نابعة من المفاجأة

المذهلة، ومن قسوة الظروف التي غادر فيها البطل ساحة النضال، فقد غادرها (بلا ماء، ولا عشب) وهي صورة من صور المعاناة التي عاناها في حياته، فقد واجه في نضاله وقبل موته الأهوال. ومما يزيد من قسوة الموت أن رحلة الكفاح كانت حافلة بالمصاعب والمخاطر ولعلها ستكون أشد قسوة بعد رحيله.

إن النظر في النص السابق يوضح أن خطوط المعنى تسير في مسارات أشبه بالصراخ الصامت أو البكاء الخافت الذي عندما يعلو وينطلق من البعد الفردي الخاص إلى أفق الجماعية في مواجهة واقع مأساوي، تتلاشى الفوارق بين الإثبات والنفي، وتذوب فيه الفوارق بين المحدود والمطلق، فحركة المعنى على هذا النحو الدرامي والتقابلي تسيطر على مجموع الأسطر حيث تصل المأساة ذروتها عندما يفتقد الزعيم مقومات الحياة، فهو يخبز دون نار، ويدفئ برد أيامه بلا طاقة أو حرارة، ومن هذه المفارقة تبرز صورة الموت الكئيب والمفارقة هنا بالغة الدرامية لأن ضحيتها هو البطل وشعبه المناضل، لقد جاءت المفارقة في إطار كاسر للتوقع، إذ إن المتوقع أن يكون الأمر على غير ما هو واقع.

ويلاحظ بجلاء في النص الشعري استدعاء الخطاب القرآني لتحقيق أكبر قدر من الحس المأساوي، وقد حاول الشاعر امتصاص الخطاب القرآني في قوله "وماؤك كله غور" لغرض آخر هو توثيق الإنتاج الدلالي وكان ذلك على سبيل الاستمداد وليس على سبيل المعارضة أو المناقضة، وتحقق التناص مع النص القرآني: "قل أرءيتم إن أصبح ماؤكم غوراً" (الملك: 30)، وجاء استدعاء الخطاب القرآني على الموافقة وعلى مستوى التركيب، إذ أحاط نفسه بمؤشرات مضيئة تدفع المتلقي إلى استدعاء الخطاب الغائب سريعاً دون خفاء ودون أن يحتاج إلى نوع من الحدس أو التأمل.

لقد كان الموت قاسياً لأنه جاء في غير أوانه، جاء قبل بزوغ فجر الأمل وقبل شروق الشمس إذ انطفأت الشمعة قبل الوصول:

هل نمت ...
يا وجع البداية
والنهاية والحنين ؟!
عبثاً ... أظن النوم يأتي
كيف يأتي ؟!
والمارد المسكون فيك
لم يستكن
يا سيد الآلام والأحلام

مهلاً لم نصل
يا شمعة النفق الطويل
قم خطوة
أو خطوتين
إنا على الأبواب
في دمنا نهز المستحيل
يا سيد الآلام والأحلام (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 22).

يوجه الشاعر منذ البداية ومن أثر الصدمة خطابه إلى القائد ويتساءل هل حقاً افتقدناك، ومن ثم اتخذ إجراءات الاعتراف بالحقيقة المرة فقال: "يا وجع البداية والنهاية، والحنين"، ثم ينتقل ليصنع مقابلته مؤكداً طبيعة الموقف الدرامي الذي يتجسد في الرحيل والبقاء، فالقائد مات مع أنه مسكون بمارد لا يستكين ولا يعرف الثبات أو التوقف عن الحركة. ويستمر الشاعر في مخاطبة القائد بأنه من غير الممكن أن يرحل في هذا الوقت العصيب.

ويلتقي عدد من الشعراء في رؤيتهم حول مأساوية موت الرئيس التي تتمثل في رحيله وحيداً لا يشاركه أحد في هذا المصير المشرف الذي يرفع من شأنه، وإن كان مصيراً يدعو إلى الألم والحزن، لأنه النهاية التي انبثقت من الشقاء والألم والمعاناة، والتي لم تصل بصاحبها إلى ما يطمح إليه، فكانت المفاجأة والغياب في لحظة خاطفة:

وها أنت تمضي
وحيداً ... وحيداً
تفيء إلى ظل خيمة في العراء
وقد مرغتك وحول المراحل
وأهدتك سيفاً بلا كبرياء
فرحت تغيب بعيداً ... بعيداً
وتغيب ولما تتم القصيدة
ويغتالك الوجد قبل الوصول
يعزيك بلغت تلك الرسالة
وتغرب في لحظة خاطفة (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 82).

هناك فرق نوعي بين التجارب الواقعية كما نعانيها في الحياة اليومية وبين ظاهرة الانفعالات الشعرية التي تدخل في بنية الشعر الخيالية، فبينما تعيش الذات الانفعالات التي تعانيها داخلياً، يقع الانفعال الشعري على كاهل الأشياء نفسها، فالحزن الواقعي الذي يعانيه شخص ما ليس

سوى تعديل في حالته النفسية نتيجة لمؤثر خارجي، أما الحزن الشعري فهو على العكس من ذلك يتم التقاطه على أنه خاصية من خواص العالم (فضل: 1987، 105)، فالنخيل والزنابق قد تبدو عند الشاعر الحزين حزينة كئيبة متوجعة تشارك في هذا الحزن الذي بدا وكأنه حزن كوني على فقد القائد:

سلام عليك ... تشظى نثاراً
دماراً
وتغرب في لحظة خاطفة
سلام على راية للرحيل
على دمعة فوق خد النخيل
سلام على وجع الزنبقات
سلام عليك ليوم الممات
تفيء إلى روحك الآن
حزناً وشوقاً
وتبحث في الأفق عن ساعديك
سلام على جثة للشظايا
سلام على دمعة في الحكايا
سلام عليك
ولم يبق منك سوى بعض نبض
سوى بعض حزن
سوى بعض رفض
وهذا الفتات
تودع بالصمت تلك الغزالة
وتمضي لتغفو بكهف العدم (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 81).

والحق أن ما قدمه الشاعر في الأسطر السابقة يمثل صورة للموت بشبحه الثقيل، وصورة الصمت والخواء والحياة الشاحبة التي تمتد لتشمل الكثير من ملامح اللوحة وهي صورة غير مستأنسة، لأنها تتعلق بفقد رجل يمثل فقده شيئاً كبيراً، لأنه يمثل رمزاً، وهذا يعادل مواجهة الموت لكيانات كبيرة ثابتة إذا التهمها فإنما يلتهم من جسد الوجود ذاته ركنا مهماً لا يعود، لقد حاول الشاعر النفاذ إلى مكنون الحالة الشعرية العميقة عبر حركة بعض مظاهر من الطبيعة، واستطاع

أن يسقط ما في نفسه من حزن على النخيل والزنابق وكأنه من خلال ذلك يعثر على المعادل الموضوعي لمشاعره الذاتية، فينقلها لنا نقلاً مؤثراً ومعبراً.

إن جعل بعض عناصر الطبيعة تشارك في الحزن يتضافر مع الجو الطقوسي الأسطوري الذي تمثل في تشظي جسد القائد نثاراً، والبحث عن أجزاء أو أشلاء من ذلك الجسد وعن تلك الشظايا، ومشاركة بعض عناصر الطبيعة في طقس الموت، وكذلك توديع الغزالة في صمت ونحو ذلك من ملامح لا تخلو من الدلالة الميثولوجية، ولعل في بعض الجوانب ما يوحي بإضفاء نوع من القداسة وهو موقف قد يأخذ بعداً دينياً في بعض جوانبه وبخاصة ما يرتبط بالفداء والاستشهاد وعلى الرغم من تراكب المستويات الأسطورية والدينية فإن استشهاد القائد لا يفقد صفة الواقعية التي يؤكدها الشاعر بعبارات مثل: "تغرب في لحظة خاطفة، تودع بالصمت، تمضي لتغفو..."، وقد تضافرت المستويات الأسطورية والدينية والواقعية في وصف ارتباط الشهيد بوطنه لتدعيم استمرارية تاريخية هدفها الرئيس وعنوانها التضحية من أجل أعدل قضية، قضية الوطن والأرض وارتباط الإنسان الفلسطيني بها كمظهر من مظاهر العودة إلى الجذور لإبراز الهوية الوطنية في مواجهة أشرس محاولات النفي عن الأرض واقتلاع الإنسان منها والقضاء على شخصيته ووجوده.

ومن هذا المنطلق يربط بعض الشعراء بين القائد والمكان التاريخي والديني لتحقيق مفهومي الأصالة والانتماء معاً، وتعد القدس بمكانتها الجليلة أكثر الأماكن ارتباطاً بالإنسان وتاريخه ووجوده جعلها الشاعر أكثر الأماكن مشاركة في الحزن على الفقيد:

القدس تخرج كي تودع وجهها
القدس تخرج للشوارع
والشوارع في ذهول
ويهل بالدمع الغزير مسربلاً
حتى يودعك الجليل
أنت الأصالة في زمان بات يغتال الأصيل
يا أيها الفذ الأصيل (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 19).

لقد جاءت القدس وفي صورة تشخيصية – كأبية حزينة لتودع ابنها وقائدها ودرة جبينها، وكأنها تندب هذا الفقيد، ويبدو كل شيء في ذهول، ويشارك الجليل الحبيب إلى قلب القائد في وداعه بالدموع الغزيرة لأنه يودع البطولة والأصالة والإباء، وقد اختار الشاعر القدس كرمز لعروبة فلسطين وقداستها، وقد اعتمدت الصياغة تقديم (الفاعل الدلالي) على الفعل (القدس تخرج)

لأن الفاعل هنا ليس مدينة عادية وإنما هي قدس الأقداس، مدينة الحلم العربي، مدينة التاريخ والحضارة والإنسانية.

ويبرز في بعض الأشعار تلازم حتمي بين موقفين متلاحمين كانا على علاقة وثيقة في شخصية الزعيم ياسر عرفات وهما الكفاح والموت، فرحلة هذا القائد كانت رحلة الشقاء ورحلة الدماء، رحلة ابتدأت بآمال وأهداف عبر أعمال كثير وقاسية انتهت بصاحبها إلى الفناء الجسدي (التراب) وليس الفناء المعنوي (الذكرى الطيبة) وقد كشف الشاعر عن هذه المعاني في قوله:

سلام على رحلة للدماء
سلام على رحله للشقاء
عليك وقد راودتك الأغاني
عليك وقد بعثرتك الأماني
وإن أنت إلا قليلا وتغدو
تراباً
وشيئاً من الذكريات
سلام عليك بهذا الممات
سلام إلى أن تنهض الريح يوماً... وتكسر الروح ذاك السبات
إلى أن نفيء إلى رشدنا
ونمضي جميعاً... جميعاً
إليك
سلام
سلام
سلام عليك (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 83).

ويمكن ملاحظة لون من الحس المأساوي يغطي مساحة الأسطر في هذا النص، الذي يتعامل فيه الشاعر مع اللغة في فطريتها ويستغل طاقاتها الإيحائية في بعض التقابلات المعجمية، والحركة هنا هادئة تساير أجواء الضياع التي تحركت وأحاطت بالشعب بعد فقد قائده. وقد أدى استعمال الشاعر للتكرار الذي يبدو وكأنه تكرار جنائزي حزين إلى إضفاء مزيد من الجماليات على النص مما يثري الغنائية فيه، ويحولها إلى فن أقرب إلى النشيد الجنائزي منه إلى قصائد الرثاء العادية، وهذا التكرار يضفي على الأسطر الإحساس بنشيد الحياة المتولد من حادث الموت.

إن تكرار عبارة (سلام على رحلة) في السطر الأول يلعب دوراً تمهيدياً بالنسبة لبنية التكرار الأساسية في الأسطر الأخرى، وتتردد لفظة "سلام" سبع مرات في سبعة أسطر وكلها

جاءت في صدر الأسطر محققة للتكرار الشكل الرأسي، وجاءت في صيغة نكرة لتفيد الشمول، كما ترددت لفظة "عليك" أربع مرات كما تكرر حرف الجر "على" بدون ارتباطه بالكاف ضمير الخطاب مرتين.

والملاحظ أن التكرار هنا قد تحقق على المستوى الظاهر والباطن لأن بنية التكرار في الأسطر التي ورد فيها كان لها دور في إنتاج الدلالة لارتباط اللفظ المكرر بما بعده؛ ولأنها تحمل شحنات من عاطفة الحزن والمرارة والألم الدفين، ويظهر أن الشكل الرأسي للتكرار من خلال تكرار اللفظة في بداية كل سطر يجعل من الكلمة المكررة نقطة ارتكاز كما يجعل من نقطة الارتكاز شيئاً ذا كثافة عالية من حيث المعنى.

الموت والبطولة:

لا يزال الشعر العربي يحمل روح البطولة ويمجدها، ولا شك أن البطولة عميقة الجذور في الروح العربية، حية في القلب تحمل تبريرها باستمرار، وقد ارتبط الموت وبخاصة الموت الاستشهادي بالبطولة ارتباطاً وثيقاً، فالإنسان يرتفع "إلى جلال البطولة عندما يكون إيجابياً يتفجر حزماً وحسماً ونقاء متحدياً كل أشكال الظلم والقهر والعدوان، وعندما يضرب مثلاً في الشجاعة ويموت ميتة الأبطال، ويمكن النظر إلى البطولة على أنها موقف أو مواقف متميزة قائمة على الإيثار والتضحية المجيدة في سبيل الوطن والدفاع عن حرية الإنسان وكرامته" (أبو شاويش: 2005، 643).

وقد تحققت في شخصية القائد ياسر عرفات ملامح عديدة من البطولة التي ترفع الإنسان إلى منزلة الأبطال في حياته وبعد مماته، وقد جسدها الشاعر أحمد دحبور في قوله:

وحين اشتدت الظلمات في النفق الطويل
سمعت صوتك أيها الرائي
وكنت كمن رأى ضوءاً تشير
هيا ومن يتعب فلي أن أزرع الأطفال في روحي
ويعشب في دمي الأطفال
جيشي في دمي، وبه أسير
الشك شك السهم في قلب الحيارى
غير أنك لم يؤخرك الحريق
ولم يخفك الزمهرير
أوذيت في الحلم الكبير (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 108).

الخطاب الشعري حول شخصية الزعيم...

من الواضح أن الشاعر جعل من البطل القائد أملاً للأمة ورمزاً لصمودها، فهو رمز للصلابة والإرادة القوية والإيمان الواثق بالهدف والغاية، وقوة الاحتمال الخارقة، والصمود والتحدي والإصرار العنيد على التمسك بالحق والدفاع عنه مهما كانت المصاعب وهو صاحب القدرة الفائقة على البقاء وسط المخاطر والمتناقضات وتوليد القوة من الضعف لتحدي المستحيل، وهذه من أبرز مقومات البطولة عندما تتحقق في الشخصية الإنسانية.

ومما يلاحظ استخدام الشاعر لعدد من الصور الشعرية، والصورة "يمكن استثارتها مرة على سبيل المجاز، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح، كتقديم وتمثيل على السواء، فإنها تعد رمزاً، وقد تصبح جزءاً من منظومة رمزية أو أسطورية" (ويلك، ووارين: د.ت: 244).

وقد استخدم الشاعر عدداً من الصور وكرر بعضها، وأخذ من الظلمات والنفق والضوء والأطفال والدم والحريق والزمهرير والحلم رموزاً شعرية يشكل بها رؤيته الجمالية، فيجعل الظلمات والنفق والحريق والزمهرير موازية للظلم والمخاطر والمصاعب والشر والمعاناة وقسوة الظروف والموت، وفي المقابل يجعل الأطفال والحلم والضوء موازية للبراءة والأمل والحرية، ويجعل الدم موازياً للحياة. وقد جاءت هذه الرموز متضافرة لتعبر عن موقف الشاعر بنفاذ وشفافية ووضوح.

ومن ملامح ارتباط الموت بالبطولة مواجهة البطل لمصيره، وعندما يواجه مصيره فإنما هو المصير الفلسطيني الذي يواجهه، والمصير الفلسطيني دائماً محفوف بالعذاب ولكنه لا يترك خياراً للإنسان (العالم وآخرون، 1988: 112)، فالموت يصبح ضرورة والكفاح محتوماً والفداء أمراً مقضياً، والمسألة تتجلى واضحة في التأكيد على شرعية الموت وشرفه، إنه فداء وعذاب وصبر لا يصدر إلا عن إرادة واقتناع، وعندئذ يصبح مصير البطل مرتبطاً بالغاية الإنسانية وبألقيم الرفيعة الفاضلة، لهذا يصبح هذا المصير أمراً مطلوباً، إنه الموت الجميل الذي يرغب فيه الإنسان ويتمنى أن يتجدد دوماً.

كم مرة قتلوه في جنباتنا ... لكن يعود ويبعث الأصداء
هو ذا أخي الفينيق دون تردد ... يُسقي الحتوف ولا يبيت فناء
هو يأتي دوماً من رماد فنائه ... ويبث في من قد رثوه فداء

(اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 60).

ومما لا شك فيه أن الشاعر العربي كلفٌ بالبطولة مولع بتمجيد الأبطال، لذلك كان من البديهي أن تتردد في جنبات شعره الإشادة بالبسالة والتضحية والفداء:

ومالت نحوك الأرض
وعدت برمحك الآتي من المنفى

وكنت الرمز للأحلام تدعونا
يطيع السمع والبصر
عليك سلامه لما أتيت إلينا تنطلق
وحين رحلت تستبق
وقد صاحبتنا عمراً
رحلت ونحن فوق الأرض أوتاد وننتسق
على الأبواب قد صارت طلائعنا
نهاية شوطنا لاحت
أعند الباب نفترق؟ (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 168).

ومن خلال النص يلاحظ أن معنى الموت قد تطور، فلم يعد الموت عنوان الهزيمة والانكسار والاستسلام بل أصبح مظهراً من مظاهر العزة والكرامة، وخاصة عندما يرتبط بتجربة بطل مناضل ضحى بحياته من أجل وطنه، ورغم أن الشاعر يستحضر صورة الزعيم الشهيد وبعض مآثره وبطولاته وما تحمله من دلالات حول مفهوم البطل الفردي، فإنه استطاع أن يضفي على بطولة الشهيد دلالات جديدة أسهمت في تحويل البطولة من دلالتها الفردية إلى دلالة جماعية، لأن الشاعر لم يجعل همه الحديث عن صفات الزعيم الخاصة، وعندما وقف على بعض ملامح بطولاته أضفى عليها سمات تجعل تلك البطولة بطولة شعب وبطولة وطن، ليؤكد على عمق العلاقة بين الشهيد وأبناء شعبه وأمته. فرحيل القائد ـــ رغم أنه كان مفاجئاً ومزلزلاً ـــ لم يحدث إلا بعد بطولات وإنجازات عظيمة حققها لوطنه، عنوانها أنه أوصل شعبه ـــ عن طريق النضال ـــ إلى الهدف والغاية والطريق الصحيح، مرفوع الهامة، قوي الإرادة، ثابت العزم، لن يتراجع عن حقه، فهو شعب بطل عظيم مثل قائده البطل العظيم.

ويلاحظ في الأسطر الشعرية السابقة من الناحية الفنية أن مجموعة من الأفعال المضارعة تنهمر علينا: تدعونا، يطيع، تنطلق، نستبق، ننتسق، نفترق، وقد اسند بعضها إلى هذا الغائب الحاضر في وجدان الشاعر والشعب، إنه البطل القائد ياسر عرفات، كما أسند بعضها إلى ضمير الجماعة، كما يلاحظ بروز ضمير الخطاب المرتبط بالفعل الماضي: عدت، كنتُ، أتيتُ، رحلت...، وهذا يعكس تداخل الماضي بالحاضر، ودخول الزمن الماضي في جوف الحاضر، وتستحيل المضارعات إلى جزء من بنية الماضيات في نسيج النص، مما يؤكد أن موقف الشاعر من التجربة لم يعد محصوراً في منظوره الفردي وإنما أخذ يمتد إلى دور يتصل بالضمير الجماعي في حركته الرامية إلى تعميق وعيه ورؤيته واحتوائه لمقتضيات الواقع والتاريخ معاً.

لقد كان البطل يدرك مصيره جيداً، ولكنه كان عنوان التحدي والصلابة:

أيطلبونك؟ ها أنت أوضح من نار على علم يزهو به بلد
طوق الحصار، على طوق الحصار على طوق الحصار فلم ترمش وهم فقدوا
زادوا الحشود فلم تهتز، واقتربوا وكلما هددوا جافاهم الرشد
ومن يهدد من؟ هذا التراب لنا ومنه جئنا فنحن الروح والجسد

(اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 109).

لقد كان البطل مثالاً في التحدي والتحمل والصبر على المكاره وهو يتوقع الاستشهاد في كل لحظة، وقد أكد الشاعر هذه المعاني من خلال الاستفهام الذي يحمل غرضاً بلاغياً واضحاً ومن خلال التكرار، فالبطل ينطلق في تحديه من قوة الحق الذي يتمسك به ومن إيمانه بحتمية انتصار الحق على الباطل، ومع ذلك فقد كان حصاره رمزاً لحصار شعبه، ومعاناته رمزاً لمعاناتنا، فهو معنا وفينا.

لقد كان البطل عظيماً في حياته كما كان عظيماً في موته، فموته كان انتصاراً على موت القعود، موت الذلة والمهانة:

قد صرت رمزاً للصمود بكل أرجاء الوجود
حتى بموتك قد صمدت مقاوماً موت القعود

(اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 6).

كما كان موته انتصاراً على الحصار فقد عاد إلى وطنه الذي مات بعيداً عنه ليدفن في ثراه وبذلك كان هذا الموت – رغم قسوته – انتصاراً على الموت الذي يريده له الأعداء:

هبطت في ساحة الأحرار منتصراً
على الحصار، فرفقاً أيها الأجل
وكنت فوق عباب الشعب مرتفعاً
ترنو إلى المجد في العلياء تبتهل
فنم قريراً، فقد خلفت قافلة
من الأشاوس ما ضنوا وما بخلوا
إليك تُرفع فخراً كل ألوية
فكيف طقت (وداعاً أيها الرجل)؟ (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 4).

يكشف النص عن طبيعة الارتباط القوي بين القائد الشهيد وشعبه الذي استشهد مدافعاً عن حريته وكرامته، هذا الارتباط الحميم جعل موت البطل مفتقداً لوحشة الموت ووحدته، وفي ذلك تأكيد حار على العلاقة الإنسانية الحية، على دفئها، وعلى قدرة الإنسان العربي أن يجعل لمصيره معنى جماعياً وتأويلاً بعيداً عن نقطة النهاية، ولذا فإن موت القائد عرفات لا يجئ مأساوياً، فموت

الأبطال القائم على التضحية والفداء هو أبعد المواقف عن المأساوية، ولعل ما يقاوم الفجيعة ويكسر شوكتها في مثل هذه المواقف وهذه الأشعار أنه عندما يموت البطل فإن أبطالاً أشاوس آخرين سيولدون، بهذا يفقد الموت معنى الفجيعة الحاسم ؛ أي معناه النهائي ويصبح حلقة في سلسلة من الكفاح والاستمرار (العالم، وآخرون: 1988: 112).

ومن ملامح البطولة أن يموت القائد واقفاً صامداً مجاهداً دون وجل أو خوف ولو كان وحده في الميدان:

وقفت في وجههم تذب عن حق لم تخشَ في الحق لائماً ولا نقداً

وكنت وحدك في ساح الوغى جيشاً وكنت في يوم الوغى جنداً

(اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 154).

لقد استشهد القائد وهو شامخ ثابت دون أن يقدم للأعداء ما أرادوه من تنازلات فلسطينية على المستوى الاستراتيجي، فكان ثمن هذا الإباء الروح وهي أغلى ما يملك الإنسان:

وقد قتلوك في عز الرباط هنا

ومن يدري!

يقول البعض يحتمل

نقول بأنهم قتلوك يوم رفضت مطلبهم

بأن القدس عاصمة لهم تبقى

بشطريها وتكتمل

كأنك كنت في طرقاتهم سداً وتنتصب

وكنت هناك معتداً

تفاوض قوة عظمى

كأنك قوة كبرى وتحتمل

وتثبت مثلما قد يثبت الجبل (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 80).

حرص الشاعر على أن يؤكد بطولة القائد من خلال مواقف خالدة لهذا القائد، وهي رفض الاستسلام، رفض الخضوع والتسليم والتفريط بالحق مهما كان الثمن. لذلك أوضح الشاعر وقوع جريمة القتل بحق القائد، فالأعداء أدركوا أنه يشكل خطراً على وجودهم، بعد رفضه التنازل وتحقيق رغبتهم على حساب شعبه وحساب دينه وقضيته العادلة، فكان صادقاً وأميناً مع نفسه ومع شعبه، لقد فضل الموت على العار كما يقولون، فضل الشهادة على الحياة بذلة ومهانة وانكسار، وجاء الشاعر مصوراً لهذا الموقف موضحاً أن البطل انطلق إلى موته من أجل الكرامة والعزة

والحياة، وأخذ يدفع الأخطار المحدقة عن وطنه، وحين هوى رافضاً التنازل والتفريط بالحق حمى بدمه وروحه قلب وطنه وقلب العروبة والإسلام من أن يتوقف عن النبض وعن الحياة وعن الكبرياء، حمى وطنه من الموت، لهذا لم يعط حياته دون ثمن بل منحها حين أصبح الفداء الحاجز الوحيد الذي يمنع موتاً أقسى وأرهب كثيراً من الموت.

وقد سعى الشاعر من خلال اللوحة الشعرية السابقة إلى تأكيد الهدف الشعري والشعوري في قبول الموت واستئناسه من خلال الطريق الوعر، الطريق الذي يحقق الحرية والعزة والكرامة، إن الشاعر عندما جعل الموت (القتل) مقابلاً للرفض (رفض الهزيمة والخنوع) أراد أن يؤكد على أن الرفض حياة، فاختيار هذه الحياة لقهر الموت هو حياة، وبذلك فتح الباب أمام شريحة التقاء الموت بالحياة.

لقد صور الشاعر الشهيد من خلال تمترسه وراء الحق العادل يواجه الأخطار الجسيمة بقوة وثبات كثبات الجبال الراسيات، وعندما تشرق، الحقيقة وينجلي الصدق الذي ينتصر على الزيف والشر نكتشف وجه الحياة الحقيقي الذي أهدته لنا روح الشهيد عندما اختارت لحظة الغياب المؤقت والدخول في دورة الكون الخالدة.

وفي سبيل التعبير عن هذه المعاني وتشكيل الصورة العامة، استخدم الشاعر عدداً من التقانات الفنية كالحوار الذي حقق بعض الأبعاد الدرامية، والتكرار الذي وجد على مساحة واسعة إذ تردد لفظ: قتلوك، القول، القوة، كنت، كأنك، يثبت، مرتين لكل لفظ محققاً التوكيد من جانب والإيحاء بعدد من الدلالات من جانب آخر، مما أسهم في بنية جمالية تزيد في طبيعة الشعرية.

الموت والأرض والوطن:

إن العلاقة بين الإنسان ووطنه علاقة لا تعرف الانفصام، لأنه بدون هذا الوطن يكون خارج الزمان وخارج المكان، وعشق الإنسان العربي للأرض لا يضارعه شيء آخر، وهذا من سمات الشخصية العربية عبر تاريخها الطويل، والأرض إلى جانب أنها الملجأ من مصائب الدهر هي الهوية والوجود والكرامة والامتداد الروحي للإنسان.

وقد تماهت صورة القائد ياسر عرفات عند استشهاده مع جماليات الوطن، وعبر عن ذلك عدد من الشعراء بصور مختلفة.

يقول الشاعر بلال الفرح:

وتغفو قليلاً
لتبعد عنا لتبقى جميلاً
وأنت تفيء حيال المدينة
وتلقي زنازينها للرياح

وتغدو الشذى في اغتراب السفينة
وتغدو ندى فوق عشب التلال
وتغدو نخيلاً رشيق الظلال
وتغدو وعوداً في أكف الغمام
وتنمو جميلاً في جفون الأقاح
وتغفو قليلاً (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات، 80).

تبرز في الأسطر ملامح الامتزاج بين الشهيد وأرضه للتعبير عن علاقة أزلية غير منفكة، فارتباط الشهيد بأرضه ارتباط فطري مقدس نابع من كونها له بمثابة الأم، وهذا الارتباط قائم على الامتزاج العضوي بينها وبينه، لذلك كانت نظرة الشاعر إلى هذه العلاقة أقرب إلى التقديس والإجلال.

تبدأ الأسطر بوصف الموت بأنه إغفاءة قليلة وابتعاد عن الواقع القاسي ابتعاداً مؤقتاً، وفي ذلك إقرار بأن هذا الموت عامل من عوامل بعث الحياة من جديد. ويلاحظ أن الموت لم يكن له طغيان في النص، فقد أفسحت الصورة الشعرية مجالاً واسعاً لعناصر الحياة ومظاهر الطبيعة التي بدت من خلالها العلاقة بين الشهيد والأرض بعناصرها ومظاهرها علاقة تلاحم، وهذه العناصر تدفع هجوم الموت بما أوتيت من معاني التجدد والتفتح والسموق والانتشار: تغدو الشذى، تغدو ندى، تغدو نخيلاً، تغدو وعوداً في أكف الغمام، تغدو جميلاً في جفون الأقاح.

وقد أوحت لفظة (تنمو) بالعطاء والخير والحياة، كما تكررت عبارة (وتغفو قليلاً)، فجاءت في السطر الأول مطلع النص، كما وردت في السطر الأخير خاتمة النص للتأكيد على أن هذا الموت ليس سوى غياب محدود، وأنه لم يكن قاسياً مأساوياً كالعادة لأن الطبيعة الجميلة أضفت عليه من شفافيتها وحيويتها، ومن الواضح أن الطبيعة تعطي مثلاً كبيراً للقدرة على التجدد والاستمرار مهما كانت المحن والعواصف (بركة: د.ت، 180) فالأقاح والزهور عامة تعطي بذوراً، وعندما تدفن هذه البذور في الأرض لا تموت، بل تنبت وتنمو وتثمر من جديد، والشاعر في الأسطر السابقة ومن خلال المزج بين الشهيد وطبيعة أرضه جعل في الشهيد قوة الطبيعة وحيويتها، وقد أضفت الصور الشعرية شيئاً من البعد الأسطوري، إذ سمت بالشهيد إلى آفاق تتجاوز حدود الإنسان وسمات البشر.

وكما يصبح من المحال حجب الريح وحبس المطر وسلب الشمس إشعاعاتها والتربة سر نمائها، فإنه ما من قوة يمكن أن تحول بين البطل الشهيد وانطلاقه إلى عناق الأرض والتوحد مع عناصرها.

إن الشاعر لجأ إلى بعض الظواهر الكونية من رياح وغمام ونبات وظلال ليربط بين عالم الإنسان (الشهيد) وعالم الطبيعة، لأن اليومي والواقع المؤلم محبط وممزق وبائس إلى درجة كبيرة يصعب وصفها، وهو واقع كأنه مرايا مهشمة ومبعثرة في ماضٍ غائر في الذاكرة، لكنه يتوهج بحياة لا تنطفئ، حياة الشهداء وهي الحياة القادرة على بعث الحياة من جديد، وقد جاء ذلك في النص من خلال الصياغة الفنية التي حققت قدراً من الإجادة بما حملته من دلالات موحية مؤثرة.

لقد أطل بعض الشعراء من خلال فقد الزعيم عرفات على مأساة الوطن الذي طالما أرقه ما يواجهه من مخاطر وويلات وقد توج حياته بأن نال شرف الشهادة من أجل ترابه الذي حضنه حياً وميتاً، يقول الشاعر شوقي الطمري:

في الأفق الذاهب نحو روابي الوطن المصفود
هزي أغصانك يا مريم
هزي الأرض ونادي ياسر عرفات
يأتيك على صهوة جرس البارود
شهيد الوطن يتبعه ألف شهيد
هذا الطير يحوم حواليك
ويبني عشاً في صدرك
ينحت من أمطار الزنبق اسم فلسطين (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 84).

نفهم من النص أن القائد الذي عاش في مفترق الطرق في زمن الاستلاب والذي شكل موته الفاجع في الغربة أمراً قاسياً وصعباً لم يبق أمامه سوى الارتداد إلى الجذور والمنابع الأصيلة، فيستدعي الشاعر مريم رمز فلسطين، رمز النقاء والطهارة والخير التي عاشت على ثرى هذه الأرض المباركة تناديه بعد أن هيأت كل ما يحسن لاستقباله ابناً باراً شهيداً يجيء على صهوة الجهاد والنضال ومقارعة الأعداء لينزرع في ثرى الوطن المثخن بالجراح والمحمل بالزنابق وعطر الأرض، مشكلاً تلك المفارقة الدرامية التي تتمثل في التقابل الحاد بين الوطن المكبل الحزين الجريح بفقد قائده والوطن السعيد باستقبال زعيم بعطر الأرض وفي حضنها الرحب الجميل، ويلاحظ أن تلك المفارقة التي دخلت نسيج الشعر وشكلته وكذلك التناص الذي برز بوضوح ووفق فيه الشاعر من خلال استدعاء النص القرآني "وهزي إليك بجذع النخلة يساقط عليك رطباً جنيا" (مريم: 25) قد أسهما إلى جانب بعض الصور والتكرار في توضيح غرض الشاعر وبيان مكانة الشهيد ومنزلته الرفيعة.

وفي إطار الوقوف على طبيعة العلاقة بين الأرض والوطن والقائد الشهيد وتأكيد هذه العلاقة يقول الشاعر أحمد دحبور في قصيدة "وداع الرجل الكبير":

القدس فاتحة السبيل
وكل درب لا تمر بها سراب
كل أرض في خرائطنا تراب، غير أنَّ القدس فاتحة النوايا
وتنام في مترين من قدس الحجارة والتراب
فهل سوى هذا التراب يقل صاحبه إلى فرح المرايا
لم تسكن القدس القريبة بعد
فيما القدس تسكن في عظامك
يشتد حولكما الحصار
لكن هذا ليس قبراً
إنه السفر الذي شق الحصار إلى النهار(اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 107).

القدس هي عنوان الوطن والأرض، عنوان الجهاد المقدس والرباط، إنها الغاية التي لا غاية بعدها، لهذا كانت هي فاتحة السبيل، فاتحة الطريق.

إن القدس كمكان وتاريخ وهوية شحنت الصياغة في الأسطر السابقة بدلالات مكثفة، فهي ترمز للوطن فلسطين، كما أن استخدام اسم الفاعل (فاتحة) مع تكراره يعني استمرارية هذه المكانة الرفيعة للقدس وتجددها، وقد جعل الشاعر الموت نوماً ليضفي عليه سمات الأمن والأمان، وهذا يتناسب مع طبيعة المكان الذي هو مستقر لهذا النوم، إنه مكان مقدس بترابه وحجارته وكل ذرة من ذراته، وذلك يليق بالشهيد الذي يرحل إلى فرح المرايا، الفرح الباهر المضيء الساطع الذي لا يعرف الانطفاء أو الزوال.

وتكشف الصياغة اللغوية عن موقف درامي مأساوي يواجهه البطل في موته، فالقدس رغم قربها المكاني والنفسي والروحي من البطل، فإنها لم تكن ممكنة لتكون مقره الأبدي – الذي كان يحلم به – بعد استشهاده، إنها تسكن في عمق الأعماق من نفسه ومع ذلك يحرمه منها أعداء الحياة. عندئذ تتحول دلالة القدس/المكان إلى القدس/الوطن والمكان معاً، وإذا لم تعد القدس قبراً فإن الوطن كله بترابه المقدس – هو المقام، وفي هذه الرحلة نحو الوطن كان البطل مسافراً حتى في موته، فلم يكن القبر مكاناً بل هو نقطة انطلاق نحو الحلم الذي لن يموت، نحو الأمل الذي يرمز إليه الشاعر بالنهار.

ورغم اشتداد الحصار على البطل وعلى وطنه وعلى القدس رمز قداسة هذا الوطن وعنوان هويته، فإن السفر (الموت) سفر الروح إلى جذورها ومنبت وجودها يكسر هذا الحصار، وجاء استخدام دال (السفر) يحمل معنى الانطلاق والتحرر مقابل الحصار بدلالاته التي تحمل معنى

القيود والمصاعب والعراقيل، فروح الشهيد انطلقت من كل الحواجز والسدود لتحلق فوق ذرى الوطن، نحو آفاق واسعة، آفاق الحرية والنور والضياء.

أبعاد ظاهرة الموت ودلالاتها:

تفاوت الشعراء في نظرتهم إلى موت الزعيم ياسر عرفات، فبعضهم اكتفى بالتعبير عن الإحساس بالخسارة واللوعة الناتجتين عن فقده، ومنهم من اتخذ ذلك وسيلة لنقد الواقع والسخط عليه، وكان لهذا الحدث – الذي غداً موضوعاً ذا تأثير واضح – أبعاد متعددة: منها الفني والقومي والإنساني (الحضاري).

وعلى مستوى البعد الفني حاول عدد من الشعراء أن يضفوا على بنائهم الفني نوعاً من الحيوية والجدة باستخدامهم تقانات فنية كالرمز والتكرار والمفارقة والتناص – وهو ما أشرنا إليه سابقاً في ثنايا البحث – واختيار الألفاظ الموحية ذات الدلالات المؤثرة والمعبرة عن موقف الحزن والألم.

وقد كان للموت – وهو محور أساسي – حضور واضح في قصائد رثاء الزعيم عرفات (المجموعة الشعرية مصدر الدراسة)، كما يلاحظ أن دلالاته التي تحول إليها عديدة، لأنه أسهم في تناسل الألفاظ والصور والدلالات، وكان مثيراً من مثيرات الطاقة الإبداعية لدى الشعراء، وكان للحضور البارز لهذه الظاهرة دور فاعل في إعطاء الخطاب الشعري طابعه المأساوي.

بلغ تردد دوال محور (الموت) في المجموعة الشعرية 250 مرة، موزعة على النحو التالي:

الموت (بمفهومه العادي المعروف)	70	مرة	بنسبة	%28	الغياب	5	"	%2
الرحيل	45	"	"	%18	الاغتيال	4	"	%1.6
الشهادة	34	"	"	%13.6	الصلب	2	"	%0.8
القتل	28	"	"	%11.2	الذبح	2	"	%0.8
التسميم	20	"	"	%8	الاحتراق	2	"	%0.8
المضي	11	"	"	%4.4	الاحتضار	2	"	%0.8
الفقد	10	"	"	%4	الحتف	1	"	%0.4
النهاية	7	"	"	%2.8	الوأد	1	"	%0.4
الترجل	6	"	"	%2.4				

وتبلغ نسبة تردد دوال هذا المحور وعددها (250) 5% من مجموع مفردات المجموعة الشعرية التي اشتملت على قصائد رثاء الزعيم عرفات، وبمعدل 12 مفردة لكل قصيدة، وهذه النسبة ليست قليلة، وتكشف عن وضوح هذه الظاهرة وانشغال الشعراء بها.

ويلاحظ في هذه الإحصاء أن فاعلية (الموت) بمعناه العادي المعروف جاءت واسعة الانتشار، فهو القدر المحتوم الذي لا مفر منه، ثم يأتي دال (الرحيل) في المرتبة الثانية، وهو يحمل دلالة أن الموت لم يكن نهاية المطاف؛ أي لم يكن موتاً نهائياً، بل هو أشبه برحلة تتبعها عودة للمقام الأبدي بعد البعث وهذه الرؤية تنبع من بعد ديني تجاه الموت، ويأتي دال (الشهادة) في المرتبة الثالثة وهذا يعني أن النظرة إلى موت القائد نظرة تقوم على أنه ليس موتاً عادياً، وإنما هو استشهاد في سبيل الله والوطن والأمة، وهي تنطلق من رؤية إسلامية خالصة، ويأتي دال (القتل) في المرتبة الرابعة، وهو يكشف بهذا الحضور عن كونه جريمة بشعة متعمدة بحق قائد وزعيم يمثل قضية شعب مناضل يدافع عن حقه في الحياة، ويأتي دال (التسميم) في المرتبة الخامسة، ويعكس الاستهجان من هذا الأسلوب البغيض الذي يمثل اعتداء على إنسانية الإنسان وهدراً وسحقاً لحياته وكرامته. ثم تتوالى الدوال الأخرى كالمضي والفقد بنسبتين متقاربتين والنهاية والترحيل بنسبتين متقاربتين، والغياب والاغتيال بنسبتين متقاربتين، والصلب والذبح والاحتراق والاحتضار بنسب متشابهة، والحتف والوأد بنسبتين متشابهتين.

أما على مستوى البعد القومي فإن الشعراء الذي رثوا الزعيم عرفات يظهرون اعتزازهم بانتمائهم إلى أمتهم العربية، ويفخرون بقومهم وعروبتهم، فحبهم لوطنهم ليس مقصوراً على فلسطين وحدها، إنما يتسع هذا الحب ليشمل الوطن العربي والأمة العربية كلها.

ولم يغفل الشعراء عن موقف البطل الشهيد من عروبته، فهو قوي الإيمان بها وبأهمية دورها في المستقبل العربي، فهو عروبي الهوى وطني لا يعرف سبيلاً إلى النزعة العنصرية أو التعصب، رغم ما واجه من زعماء أمته من جحود وتقاعس عن واجبهم تجاه قضيتهم القومية قضية فلسطين، وبخاصة في المرحلة الأخيرة العصيبة التي سبقت استشهاده والتي تعرض فيها مع شعبه للحصار والبطش والقتل والتدمير.

وقد منح عدد من الشعراء تجربتهم الرثائية أبعاداً قومية خرجت بها عن دائرة الرثاء التقليدي الذي يقتصر فيه الشاعر على وصف إحساسه الخاص بفقد المرثي (سمرين: 1990، 423) ففي قصيدة (الرمز الخالد) يبكي الشاعر انكسار الآمال وسيطرة روح التخاذل والتراجع أمام التحديات الكبيرة التي تواجه الأمة في واقع مثخن بالجراحات، جراحات الانكسار الغائرة في زمن الاستلاب والضياع:

الخطاب الشعري حول شخصية الزعيم...

وخطوك لم يجد أرضاً فتتسع
ولو جبل تربع في مكانك مرة يقع
تفر بحملك الدامي فتُقتلع
وتترك بصمة الشهداء فوق الأرض تنزرع
وتاريخاً يذكرنا به الوجع
.....
أكنت تجيء في عصر العواصم وهي تندحر
وتحمل سيفها الخشبي تحتضر
أكنت تجيء في عصر يسبح نفطنا حمداً لأمريكا
ومثل النفط قد صرنا براميلاً
بلا عنق فنلتفت
بلا قدمين للساقين ننصرف.
بلا رأس نفكر كيف نختلف
بلا عينين نفتحها ترينا شكل مخدعنا
بلا أذنين نستمع
لماذا جئت في عصر القعود تهز في عزم مراقدنا (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 163).

يقدم الشاعر صورة سوداوية عن الواقع العربي مشيراً إلى ذلك التخاذل الذي واجهه البطل في أقسى فترات نضاله من زعماء أمته الذين يتربعون على عروش الحكم في عواصمهم التي سلبت كرامتها وسيادتها، فحولت الإنسان العربي إلى تابع لا يملك مقومات شخصيته وهويته، وكان الشاعر يستصرخ الضمائر الحية في أمته العربية في مواجهة الموقف الرسمي الذي باع الشهداء بيع السماح، واستهجن الشاعر هذا الموقف الذي تجسد في التقصير عن نجدة الشهيد وشعبه في حصارهما وفي تصديهما لأعتى قوى الشر والبطش والعدوان، لقد راعه أن يجد الضعف والانكسار عنواناً للأمة وسمة بارزة لها رغم امتلاكها لمقومات القوة والحياة.

وفي قصيدة (وداع الرجل الكبير) يصور الشاعر مشاعر الألم التي تنتاب الشاعر من موقف التردي العربي في مواجهة المسئوليات القومية، ومع ذلك وعلى لسان القائد الشهيد يتحول الموقف للتأكيد على الثقة بالله والإيمان الراسخ بأهمية البعد القومي العربي في حماية الحلم الفلسطيني والحق العربي في فلسطين وفي كل أرض عربية:

يا إله إلا وفيَ أو نصير؟

وتقول: بل هذي العباءة سترنا العربي، إنا لن نغير جلدنا

ونضج حولك بالسؤال: تكاثر الموتى وقل المؤمنون

تجيب: إن القدس أعطتك العلامة

إن ربك قال: ننصر جندنا

ونقول: تدركنا نصال الأقربين

ترد: سوف يردها قدس العباءة، فالعباءة عندنا

ولكم جرحت فلم تصح: يا وحدنا

بل قلت يا سمح المحيا

عربية هذي الهموم

ولم أبع أهلي وإن ضنوا عليا (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 108).

ومن الواضح أن الأسطر السابقة وما قبلها ليست تعبيراً عن شكاية غنائية وذاتية حول مصير خاص، بل هي شكوى حول فقدان الأوهام الثورية، إنها شكوى فقدان الآمال والشعور بخيبة الأمل من الواقع المظلم والخداع المشين، إنها تعكس ثورة نفوس ملتهبة تتضرم فيها النار، نار الأسى والحزن مشفوعاً بالقلق على مستقبل أمة لها تاريخها المجيد.

ويلفت النظر في النص السابق التساؤلات التي تكشف عن خيبة الأمل تجاه الحكام واستنكار تخاذلهم وانهزاميتهم تجاه الأحداث الجسيمة، كما يلاحظ استخدام الحوار الذي جاء بين الشاعر – معبراً عن الضمير الجمعي – والبطل الذي يواجه موقفاً عصيباً، ويكشف الحوار عن رفض للهزيمة، فالبطل كرمز للكرامة والإباء الوطني يرفض الانكسار ويعول على البعد القومي، ومن خلال رؤية جمالية يتضح أن موقف البطل كان معبراً عن موقف جماعي ومن خلاله يمكن تحقيق تجاوز لآفاق الانكسار الكبير، وقد أضفى الحوار أبعاداً جمالية على التشكيل الفني، وهو حوار يعبر عن استمرارية حياة الشهيد في وعي الشاعر ووعي القارئ، وكأن الشهيد مازال شهادة حياتية تحاور الحاضر.

وقد نعد الحوار الذي أقامه الشاعر مع البطل الشهيد بمثابة حوار بين الأمل واليأس بين الحياة والموت، وهو تأكيد لصورة من صور المعاناة والحس المأساوي التي ترتبت عن موقف العجز والقصور والإحباط الذي يحاول الشاعر أن يكشف عنه ويعبر عن أبعاده ودلالاته.

ولا نشك أن استخدام بعض الرموز كرمز العباءة واستخدام التناص القرآني وغير القرآني أسهم ومن خلال تضافر أدوات أخرى – على مستوى الصياغة – في تشكيل حركة

موازية ومعادلة على مستوى الدلالة كان لها أثرها في إثراء الشعرية وتثبيت بعض آليات إنتاج الدلالة والكشف عن تناقضاتها وأبعادها المختلفة.

وأما عن البعد الإنساني فإننا نتلمسه في مواضع عديدة من قصائد الرثاء مجسداً الحسن المأساوي العميق، ويلاحظ على كثير مما طرحه الشعراء حول موت الرئيس عرفات أنه ينبع في كثير من الأحيان من مشاعر إنسانية مرهفة وحساسة تؤمن بالإنسان وبحقه في العيش بأمن وسلام، ولكن هذه الغاية أو الرغبة الإنسانية على وضوحها وبساطتها وشرعيتها تصطدم بتحديات شديدة من عدو لا يعرف سوى سحق الإنسان وكسر إرادته، وتدمير وجوده، والنيل من إنسانيته، فتبرز الصورة المأساوية في مواجهة البطل لمصيره المحتوم الذي يعرف نهايته مصراً على المواجهة والموت/الاستشهاد الذي لم يكن رغم قسوة الواقع وصعوبة الموقف وحلكة الطريق – موتاً مجانياً لأنه موت من أجل أن تحيا الأمة أو الجماعة، من أجل حرية الإنسان وكرامته:

لعلك في سكرة الموت تصحو
وتنسى قليلاً
وتمشي كما كنت يوماً
خفيفاً
تلملم قلبك منا وتمضي
كما الماء تمضى
شفيفاً ... شفيفاً
فهل كنت تدري بتلك النهاية
أم الحرب ألقت بأوزارها
وسدت بوجهك كل الدروب
تحاول جهداً
وكم قد وئدت، وكم قد طعنت، وكم قد صلبت
وقمت تحارب في كل ساح
وأخنت على الروح سود الليالي (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 80-81).

إنها صورة حية لمأساة بطل وقائد مناضل يحتفظ بنزعة إنسانية وروح حية، فهو رغم التحديات يحمل إرادة صلبة قوية وهو يحمل الحلم الفلسطيني الذي ظل فاعلاً ومحركاً ومتسربلاً بالدم والموت والشهادة (قطوس: 1995: 221).

لقد استطاع الشاعر من خلال هذه القصيدة وقصائد أخرى (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 63، 67، 85، 86) أن يجعلنا نشعر بالعطف على البطل الذي راح ضحية قوى

الشر والعدوان، وأثار سخطنا على تلك القوى التي مثلت الظلم والاستبداد. ولا شك أن الشاعر حاول أن يكشف عن النفس الإنسانية ما تحمله من معاناة، من خلال إبراز ملامح الظلم التي تتعرض لها الإنسانية ممثلة في قتل زعيم لا يحلم سوى بالحرية لشعبه ووطنه، والحق أن صورة الزعيم الذي قضى في سبيل حرية وطنه تبعث على الإعجاب، وإن كانت تبعث في النهاية على الحزن.

إن الشاعر أحس - كما أحسسنا بقرابة متينة، قرابة الإنسان للإنسان، تلك القرابة التي تدفعنا إلى التعاطف والإعجاب بالبطولة، خاصة وأنها بطولة جماعية وليست فردية، لأن البطل لم يناضل من أجل ذاته، بل من أجل شعبه ومن أجل كرامة الإنسان، ويجئ الموت في هذه الحالة من أجل تجذير الحضور الإنساني والتاريخي المقتلع، فالبطل يغرس أوتاده في أرض الوطن باعتباره ثائراً لتحرير الأرض والإنسان.

ولتأكيد الحس المأساوي والبعد الإنساني برز في قصائد رثاء الرئيس عرفات معاني الغربة الإنسانية، فالشهيد عرفات مات في الغربة كمثال للشعب الفلسطيني المشرد الممزق الذي يموت بعيداً عن وطنه، يقول الشاعر أحمد دحبور:

والآن حين تموت في المنفى

يعيدك قلب شعبك

فانتفض لتقوم حيا (اللجنة التحضيرية لمؤتمر ياسر عرفات: 2005، 108).

وقد أسهمت الصياغة الفنية وتكريس الغربة في شحن ظاهرة الموت بأكبر قدر من الشحنات الإنسانية لدفع هذا الواقع، القاسي المرير، والنظر بعين الأمل إلى المستقبل، ويكشف الشاعر عن طبيعة العلاقة بين القائد وشعبه، وهي علاقة حميمة تقوم على الإكبار والاعتزاز، فالقائد يعيش في قلب شعبه ويسكن فيه بكل الحب والحدب والتعاطف، وكأنه بذلك يمنح القائد حياة جديدة تدفعه لينتفض متحدياً الموت.

الخاتمة :

تكشف هذه الدراسة من خلال تتبع ظاهرة الموت في مراثي الزعيم عرفات عما يلي:

- أطل الشعر من خلال التفاعل مع فقد الزعيم عرفات على قضية وطن ومأساة شعب.
- لقد شغل استشهاد الزعيم عرفات عدداً من الشعراء بدافع الوفاء والإخلاص لقائد وطني حينا أو بدافع إبراز مشاعر الحزن والألم أو مشاعر الاعتزاز والافتخار بهذا الاستشهاد أحيانا أخرى.
- تحققت في شخصية الرئيس عرفات العديد من ملامح البطولة التي ترفع الإنسان إلى منزلة الأبطال في حياته وبعد مماته، وقد جسدها عدد من الشعراء في جعلهم القائد أملاً لشعبه ورمزاً للصمود والصلابة وقوة الإرادة والتحدي.

الخطاب الشعري حول شخصية الزعيم...

- تطور معنى الموت في مراثي الرئيس، فلم يعد الموت عنوان الهزيمة والانكسار، بل أصبح مظهراً من مظاهر العزة والكرامة وبخاصة عندما يرتبط باستشهاد قائد ضحى من أجل وطنه وقضية شعبه.
- لم تعد قضية الموت كما كانت في القديم موت بطل فحسب، وإنما القضية موت طموح، موت رمز للتحدي والمقاومة، ورغبة في تجاوز هذا الموت إلى الحياة.
- يتحرك محور الموت على المستوى الوطني والقومي والإنساني ويتداخل مع تحولات الدلالة التي تتوقف أمام ظاهرة الموت رافضة له في صورته القاتمة، متقبلة له في وضع الاستشهاد والتضحية بالروح من أجل الوطن والحق، ولكنه في هذا وذاك يدفع الدلالة على أعماق الحزن لفقد الزعيم عرفات.
- حول الشعر استشهاد عرفات في مواضع ومواقف عديدة إلى نشيد خالد، إلى ملحمة بطولة، إلى مواجهة مع الواقع المتردي، إلى كشف الزيف وبشاعته.
- غلبت على قصائد الرثاء عاطفة الحزن واستنكار جريمة القتل والشعور بخيبة الأمل من الموقف الرسمي العربي والعالمي ومع ذلك لم تخل القصائد من التفاؤل والأمل في مستقبل أفضل زرع بذوره الشهداء الأبرار وعلى رأسهم القائد الراحل عرفات.
- ليس شعر رثاء الرئيس كله على نسق واحد من القوة وإصابة المعنى المقصود، فنعثر على ما يفيض بالصدق والعفوية والحيوية وقوة الصياغة وجمال التشكيل، كما نعثر على نماذج لا تخلو من النثرية والتقريرية والانفعالية والتعامل مع الحدث بمباشرة كرد فعل للحدث نفسه.
- من الظواهر البارزة في المراثي تكرار عدد من الصور التي رسمها بعض الشعراء، فالصورة المشرقة للموت والصورة القاتمة له تكرر بعضها بالمعاني والأبعاد نفسها دون تجديد أو إضافة كبيرة في كثير من الأحيان ؛ مما حد من إشعاع بعضها وإيحائه حين انتزع منها التكرار الحركة والحيوية.
- رغم نجاح بعض الشعراء في توضيح بعض ملامح من الأبعاد الفنية والقومية والإنسانية لموت الرئيس، فإنه كان من المنتظر من الشعراء في نظرتهم إلى الموت أن يمنحوا شعرهم آفاقاً وأبعاداً أخرى واسعة يطلون من خلالها على فلسفة الموت والحياة وموقف الإنسان المعاصر منها، ولكنهم مع الأسف لم يفعلوا ذلك، ولم يزد أكثر هؤلاء الشعراء في مراثيهم على أن وصفوا إحساسهم بالخسارة واللوعة الناتجتين عن فقدهم وفقد أمتهم للقائد الرئيس.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، زكريا، د.ت، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة.
3. أبو شاويش ،حماد، 2005،شخصية البطل في الشعر العربي المعاصر،الجامعة الإسلامية، غزة.
4. بدوي، عبد الرحمن، د.ت، الموت والعبقرية، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت.
5. بركة، نظمي، د.ت، الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطيني المعاصر، دار الفجر للطباعة والنشر، القاهرة.
6. درويش، أحمد، 1992، ملامح التجسيد الفني لظاهرة الحرية في شعر محمود درويش، مجلة فصول، مصر، مجلد11، عدد 1، (74-89).
7. سمرين، رجا، 1990، شعر المرأة العربية المعاصر، ط1، دار الحداثة، بيروت.
8. شرفة، حسين، 1987، الحب والموت في شعر أبي القاسم الشابي، رسالة ماجستير مخطوطة، جامعة عين شمس، القاهرة.
9. العالم، أمين، وآخرون، 1988، في قضايا الشعر العربي المعاصر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
10. فضل، صلاح، 1987، إنتاج الدلالة الأدبية، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، القاهرة.
11. قطوس، بسام، 1995، البعد الإنساني في شعر عبد الرحيم محمود، مجلة مؤتة، الأردن، المجلد10، عدد2، 213-230.
12. قميحة، جابر، 1981، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الأفاق الجديدة، بيروت.
13. اللجنة التحضيرية لمؤتمر الرئيس ياسر عرفات، 2005، الزعيم القائد ياسر عرفات في عيون الأدباء، جامعة الأقصى، غزة.
14. النابلسي، شاكر، 1987، مجنون التراب، دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
15. ويلك، ووارين، د.ت، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق.

ملحق

سيرة الرئيس ياسر عرفات

ياسر عرفات هو "محمد ياسر" عبد الرؤوف القدوة الحسيني

- ولد في القدس، بتاريخ 1929/8/4.
- تلقى تعليمه في مصر.
- التحق بالضباط الاحتياط للجيش المصري وقاتل في صفوفه منذ العدوان الثلاثي على مصر.
- تخرج مهندساً في جامعة فؤاد الأول ــ القاهرة.
- انخرط في شبابه في الحركة الوطنية الفلسطينية من خلال الانضمام إلى اتحاد طلاب فلسطين في 1944 وتولى رئاسته لاحقاً.
- في الخمسينيات أسس مع إخوانه من المناضلين الفلسطينيين حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" وأُعلن أنه الناطق الرسمي لها في 1968.
- في شباط 1969: انتخب رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.
- في سنة 1973 عين قائداً عاماً لقوات الثورة الفلسطينية.
- في سنة 1974 ألقى كلمة باسم الشعب الفلسطيني أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك.
- حصل على عدة أوسمة وجوائز وفي سنة 1982 قاد المعركة البطولية ضد العدوان الإسرائيلي على لبنان ومعركة الصمود خلال حصار بيروت من قبل القوات الإسرائيلية.
- في نوفمبر 1984 ونيسان 1987، أعيد انتخابه رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية من قبل الدورات 17، 18، 19 للمجلس الوطني الفلسطيني.
- في 1988/11/5 تلا إعلان الاستقلال وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وانتخب رئيساً لدولة فلسطين.
- في 1996/1/20: تم انتخابه رئيساً للسلطة الوطنية الفلسطينية.
- في 11/11/ 2004 انتقل إلى جوار به شهيداً في مستشفى بيرسي العسكري في فرنسا.
- في 2004/11/12: دفن في مقر المقاطعة في رام الله.
- مصدر السيرة كتاب: الزعيم القائد ياسر عرفات في عيون الأدباء.